المراتب البلاغية، مراجعات في أصول البلاغة العربية

Rhetorical Ranks, Reviews in the Origins of Arabic Rhetoric

م.د. هدى صيهود زرزور العمري

دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

ديوان الوقف السُّني

Dr. Huda Saihood Zarzoor Al-Omari

Sunni Endowment Diwan \ Department of Religious Education and Islamic Studies

Email : hudasuhood19731973.com@aol.com

Mobile : 07509397586

الملخص

يأتي بحثنا الموسوم بـ(المراتب البلاغية، مراجعات في أصول البلاغة العربية) في إطار التأصيل البلاغي والتأسيس المنهجي لموروثنا العربي عِبر مجسّات السؤال القديم بملامح معاصرة، فيكشف التقصي البحثي عَـن تشييد تصوّر إجمالي لإجراءات البلاغيين واثباتِ طروحاتهم في أن للبلاغة مستويات ومقامات دلالية خاصة برُتب الكلام من جانب، ورُتبِ المتكلمين من جانبٍ آخر، وتلك الرُتب الجمالية ترتقي بالتعبير إلى تصيّدِ المعاني العميقة وتقديمها في قوالبَ لفظيةٍ تستثيرُ إعجاب المتلقين، وتُعاين عطاءات البلاغة في كُلّ اتجاهاتها وفنونها؛ لارتباط بعضها ببعض وفق علاقات حسّية لا يمكن إغفالها لضرورة تحديد موقع الكلم الثابتِ مُتقدّمًا أو مُتأخرًا في التركيب البلاغي.

ومن المتيسّر التقاطهُ ضمنًا عبر مجسّات المتابعة الدقيقة لدلالة (المرتبة) اصطلاحيًا، أنه يكاد يتقارب الفهم الاصطلاحي للمرتبة في مفهومها البلاغي العام مع مراعاة المقام والرُّتبِ في العديد من دراسات اللغة والنحو والصرف؛ لأن الجميع كانوا منشغلين بالكشف عن خصائص النظم في الأسلوب العربي وهندسة التركيب فيه، ثم كان للمبدعين شعراء وكتابًا دور في الحديث البلاغي عن الصيغة وأبعادها التأثيرية، مما تحفل به كتب الأدب والمحاضرات والأمالي. وفي حجر هذي المتون نشأت البلاغة ونمت إذ كانت سلاحاً من أسلحة التعبير وقوة التأثير، وفي ضوء هذه المعطيات فالبلاغة نتلمسها في مجالات اللغة والنحو والصرف والتفسير والكلام والأدب .

الكلمات المفتاحية : المراتب، البلاغة، العربية، مراجعات، أصول.

Abstract

This research comes within the framework of the rhetorical rooting and the systematic foundation of our Arab heritage through the old question sensors with contemporary features. It elevates the expression to hunting for deep meanings and presenting them in verbal forms that impress the recipients, and examines the bids of rhetoric in all its directions and arts; Because they are related to each other according to sensory relationships that cannot be overlooked due to the necessity of locating the fixed words, either ahead or later in the rhetorical structure.

It is possible to capture it implicitly through sensors of accurate follow-up of the meaning of (rank) idiomatically, as it almost converges the conventional understanding of the rank in its general rhetorical concept, taking into account the place and ranks in many studies of language, grammar and morphology; Because everyone was preoccupied with revealing the characteristics of the systems in the Arabic style and the geometry of the composition in it, then the creators, poets and writers, had a role in the rhetorical talk about the formula and its impactful dimensions, which is full of literature books, lectures and hopes. In the stone of these texts rhetoric arose and grew as it was a weapon of expression and the power of influence, and in light of these data, rhetoric is touched in the fields of language, grammar, morphology, interpretation, speech and literature.

Keywords : ranks, rhetoric, Arabic, reviews, assets.

المقدمـة

اللّهم لك الحمد كما أنت أهلهُ ووليهُ، وكما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللّهمّ لك الحمد حمداً لا ينفد أوله ولا ينقطع آخره، اللّهمّ لك الحمد فأنت أهلٌ أن تحمد وتعبد وتشكر، اللّهم لكَ الحمد في اليسر والعُسرِ، اللهم لك الحمدُ على نعمك التي لا يحصيها غيرك، والصلاةُ والسلام على أشرفِ خلقك سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعدُ :

فالبلاغة صناعةُ العربِ الأولى، وسرُّ مهارتهم البيانية في الكشف عن أسرار النظمِ ودلالات التراكيب، فقد استأثر تراثنا البلاغي بنصيب وافر من جهود الدارسين، فظهرت مجموعة ثمينة من الأصول البلاغية التي تستشرف أفاقه، وتحاول فهمه وإفهامه، وهي في مجملها تدور على عدد من المحاور؛ حيث اتجه بعضها إلى دراسة القضايا الكبرى للبلاغة وفقاً لعلومها الثلاثة وموضوعاتها، وتتبع مصطلحاتها، ومدى تأثرها بتراث الأمم الأخرى، واتجه بعضها إلى التعريف برجالها ومدى إسهامهم في معالجة قضاياها ومسائلها، وجاء بعضها للكشف عن صلة البلاغة بالعلوم والمعارف الأخرى، والبيئات التي نشأ فيها هذا النوع من الدرس. كما لم يغفل الدارسون الجانب التطبيقي، فاتجه فريق منهم إلى دراسة النصوص وتحليلها على هدى مما انتهت إليه الدراسة النظرية.

وقد حرصت في هذه المحاولة أن أطرق بابًا آخر من أبواب ذلك التراث الثّر، عندما استوقفني ما يشير إليه بعض البلاغيين من ذلك التفرّد المنهجي في صياغة المراتب البلاغية، استنادًا إلى رؤىً نقدية تنوعت مراحلها الزمنية ومنطلقاتها ومن تلك الإشارات قول أبي هلال العسكري يصف مراتب الكلام : وإنما قصدت بمراتب الكلام مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، وقول السكاكيّ في تبنيهِ لمفهوم المرتبة بإقرارهِ الصريح المتضمن تنزيل الكلام ترتيبه ووضع كل شيء منه في مرتبته اللائقة به، وذكره في الوقت الذي ينبغي أن يذكر فيه.

ويأتي تأكيد القزويني على أن مراتب البلاغة العربية تتفاوت بين مقامات الكلام والمتكلمين وتنتهج لغة الخطاب بتراتبية النسق والغاية أو المقصدية، فتتدرج بين العلو والتوسُّطِ والدنو.

وبما أنّ صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، فقد جاءت منهجية البحث مرتبطة بالمهيمنات الفكرية التي تحددها علوم البلاغة (المعاني – البيان – البديع) معتمدة على المنهج التحليلي الوصفي الذي

لا يُلغي التفاعل بين أساليب الأجناس الأدبية وغير الأدبية، ولكنه يحتفظ لنفسهِ بحق إقرار وجود حدود أسلوبية فاصلة بين جنس وآخر، وهذا يقتضي تباين المفهومات والمبادئ واختلاف أنماط القراءة والمقاربة التحليلية، حيث يستدعي كل مرتبة أدبية أو بلاغية نسقا مفهوميا وإجرائيا مناسبا لحدوده وآفاقه. وقد أظهر تأملنا في الخطاب البلاغي الموروث أن علماءنا لم يصدروا في صياغة تصوراتهم عن مقولة الألفاظ والمعاني فحسب؛ بل استأثرت مقامات المخاطبين والمتكلمين بوعيهم الجمالي والفكري.

جاء تقسيم البحثِ إلى مطالبَ ثلاثة أستندت إلى خطة علمية في استيعاب أبرز مقومات الرتبة بدءًا من صياغتها المفهومية وصولاً إلى مقصديتها الدلالية في رصدِ الغايات وتحقيق البنيات البلاغية السَّامية.

نسأل الله تعالى أن يتقبّل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المطلب الأول : التأسيس المفهومي للمرتبة

أولاً- المفهوم اللغوي :

ينطلق البناء المعجمي في تقرير ثوابت المفردات من البحث في أصل جذر اللفظ للدلالة على معاني تكشف عَـن المضامين الجوهرية التي تفرض سلطتها على الباحثِ للوصولِ إلى مفهومٍ شمولي يجمعُ بين اللغة والاصطلاح، ويبدأ من نقطة الغور في المتون المعجمية للإقرار بأنّ المفهوم اللغوي للمرتبة يُرادُ بهِ دلالة : المنزلةُ والمقامُ والمكانة، ويأتي إطلاق لفظ المرتبةِ على «ما أشرف من الأرض كالدرج، وترتَّب فلانٌ علا رتبة»[1]، والمرتبة هي المنزلة الرفيعة كما قال الخليل: «المراتب في الجبال والصحاري من الأعلام التي يرتب عليها العيون والرقباء»[2] فالمراتب هي الأعلام التي تكون في أعلى الجبل ؛لذا قال الأصمعي فيما نُقل عنه: المرتبة: المرقبة، وهي أعلى الجبلِ مجازا للدلالةِ على المَكانَـةِ عنـد المُلـوكِ ونحوهم، فيُقالُ: لـهُ مَرتبـةٌ عِنـْدَ السُلطانِ، أي: مَنزِلَةٌ عاليةٌ، ويقال: هو من أهل المراتب، أي: في أعلى الرُّتَبِ[3].

وجاء في الحديثِ الشريف : «من مات على مرتبة من هذه المراتب، بعث عليها»[4]؛ المرتبة : المنزلة الرفيعة، أراد بها الغزو والحج، ونحوهما من العبادات الشاقة، وهي (مفعلة) من رتب إذا انتصبَ قائمًا،

(١) كتاب العين: ٨/ ١١٥،(رَتَبَ)، باب (التاء والراء والباء) ٨/ ١١٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (رَتَبَ)، ١/١٣٣.
(٤) الحديث رواه أحمد في مسنده، عن فضالة بن عبيد؛ رقم: (٢٣٩٤١)، ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ تح: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، ٣٦٦/ ٣٩، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ-٢٠٠١م.

و(المراتب) جمعها.»[١]

ومن معاني (رَتَبَ) : (الثبات ضد الحركةِ، والدوام) يقال : رتب الشيء يرتب رتوبا، وترتّب: ثبت فلم يتحرك، ويقال: رتبته ترتيبا بمعنى أثبته، وأمر راتب: أي: دائم ثابت، والرتبة تجمع على رتب، والمرتبة : على مراتب.[٢] فالرتبة والمرتبة معناهما واحد.

وقد آثرَ البحثُ التعبيرَ بـ(المراتب) لمناسبة اللفظ دلالته العميقة التي يسعى إلى إثباتها، ورصدِ مقامات الكلامِ ومكاناتُ المتكلمين، وفسّر الزمخشري دلالة المفهوم وأنواعهِ بقولهِ : «وَرتَّبَ ... رقَّى في رُتبِ الدرج ومراتبها، ورتب الأشياء، ورتب الطلائع في المراتب، والمراقب، وهي مواضيع الرقباء في الجبال»[٣]، وتأسيساً على ذلك يتأكد المفهوم اللغوي على أن : المرتبة: المنزلة الرفيعة، و(المراتب) جمعها.

وهذا ماسيتم التفصيل فيه ضمن سياقات المنهج التحليلي الوصفي المُتّبع لبحثنا الموسوم بـ((المراتب البلاغية ،مراجعات في أصول البلاغة العربية)).

ثانيًا- المفهوم الاصطلاحي :

يعكس معنى الرُّتبة اصطلاحا دلالة المفهوم اللغوي وفاعليتهِ في توظيف المكانة والموضع والمقام والدرجات حسب تفاوتها في العلو والدُّنو، ولم أجد من القدماء من وقفَ عند هذا المفهوم الاصطلاحي وقفةً شمولية متفحِّصة تبيّن ماهية الدّال ومكنوناتهِ العميقة، وهذا يدعونا للإشارةِ إلى جميع التصنيفات القائمة على النوع أو الدرجة، كمراتب النحو، ومراتب الفقه، ومراتب الحديث، ومراتب البلاغة، مما يدعو إلى تأكيد منزلةِ ومكانة كُلّ علمٍ من هذه العلوم والمعارف ووضعها في إطارها التخصصي الدقيق، بدليلِ تنبّه النحاة الأوائل إلى معنى الرّتبةِ ودورها في الجملة؛ ولكنهم لم يعالجوها في مبحث مستقل بل توزعت على جميع أبواب النحو[٤]. ولعل هذا الفهم أملى عليهم تحديد «الموقع الأصلي الذي يجب أن تتخذه الوظيفة النحوية بالنسبة للوظائف الأخرى المرتبطة بها بعلاقة نحوية تركيبية فالفاعل رتبته التقديم، والمفعول رتبته التأخير، وكذا المبتدأ فإن رتبته التقديم والخبر رتبته التأخير»[٥].

(١) لسان العرب؛ لابن منظور، بتصرف وحذف، مادة (رَتَبَ)، ط: الثالثة ،دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ، مج٣/ ٢٣٧.

(٢) ينظر: الصحاح: ١ / ١٣٣، ولسان العرب: ٦/ ٩٣، وتاج العروس: ٢/ ٤٨١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢٦ (رتب).

(٣) أساس البلاغة، بتصرف وحذف، (رتب)، ط: دار ومطابع الشعب، القاهرة، ط: ١٩٦٠م.

(٤) الضرورة الشعرية في النحو العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ص٤١٥.

(٥) دور الرتبة : ص١٣.

ويكشف التقصي البحثي عَـن تشييد تصوّر إجمالي لإجراءات البلاغيين واثباتِ طروحاتهم في أن للبلاغة مستويات ومقامات دلالية خاصة برُتب الكلام من جانب، ورُتبِ المتكلمين من جانبٍ آخر، وتلك الرُتب الجمالية ترتقي بالتعبير إلى تصيّدِ المعاني العميقة وتقديمها في قوالبَ لفظيةٍ تستثيرُ إعجاب المتلقين، وتُعاين عطاءات البلاغة في كُلّ اتجاهاتها وفنونها؛ لارتباط بعضها ببعض وفق علاقات حسّية لايمكن إغفالها لضرورة تحديد «موقع الكلم الثابتِ مُتقدّمًا أو مُتأخرًا في التركيب البلاغي»[1].

ومن المتيسّر التقاطهُ ضمنًا عبر مجسّات المتابعة الدقيقة لدلالة (المرتبة) اصطلاحيًا، أنه يكاد يتقارب الفهم الاصطلاحي للمرتبة في مفهومها البلاغي العام مع مراعاة المقام والرُّتبِ في العديد من دراسات اللغة والنحو والصرف «لأن الجميع كانوا منشغلين بالكشف عن خصائص النظم في الأسلوب العربي وهندسة التركيب فيه، ثم كان للمبدعين شعراء وكتابًا دور في الحديث البلاغي عن الصيغة وأبعادها التأثيرية، مما تحفل به كتب الأدب والمحاضرات والأمالي. وفي حجر هذي المتون نشأت البلاغة ونمت إذ كانت سلاحاً من أسلحة التعبير وقوة التأثير، وفي ضوء هذه المعطيات فالبلاغة نلتمسها في مجالات اللغة والنحو والصرف والتفسير والكلام والأدب»[2].

ثالثاً : المفهوم البلاغي والنقدي :

ينهض مفهوم (المرتبة) في كتب البلاغة والنقدِ قديماً وحديثاً على محمولات دلالية متباينة في استجادتها لعمق المعنى وبنياته المقصودة، وهذا التصريح بالتفاوتِ والبناء على مرتكزات فكرية نابع من تتبعِ أسس البحثِ البلاغي والنقد عند علماء العربية في أول خطوةٍ لتأصيلِ مراتب الكلام والمتكلمين ، وتحديد مقامات البلاغة وفقاً للنظر في إختلال مواقع الألفاظ ومعانيها إذا اختل ركنٌ من أركانِ رتبته بحسب مكانة المتكلمِ ومقامِ الحال .

ولابدّ من الإشارةِ إلى الإختلاف الواضح في وجهاتِ النظر بين البلاغيين والنقاد القدامى والذي ينطوي على أن الأسس والمرتكزات التي تنطلق منها مراتب البلاغة تقتضي ومن بين أبرز النقاد الذين وقفوا على مضامين الرُّتب البلاغية وتحديد مقامات الكلام ، ابن سلاّم الجمحيّ (ت ٢٣١هـ) منطلقًا من نقطة الارتكاز الحقيقية التي بدأت بها أصول البلاغة العربية، وموجبات الحفاظ عليها؛ وهو يتحدثُ في طبقاتهِ عَـن مراتب الشعرِ والشعراء وفق عوامل فنية زمانية مكانية تنطلق من ركيزةٍ مفادها أن للشعر

(١) أقسام الكلام العربي :ص١٤٦.
(٢) أوساط البلاغة العربية : مصطفى الجويني، ص٦.

صناعةٌ وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، مؤكدًا: ((إن مقصد القصيد، إنما ابتدأ فيها بذكر مراتب استفتاح الطلل والديار والدمن والآثار؛ فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف أليه الوجوه؛ وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه))[1]، في الوقت الذي نلمحُ فيه الاتجاه الموافق لما جاء به الجمحيّ متمثلاً في الرؤية النقدية للجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، الذي يعدُّ أول النقاد وعيًا بقضية المراتب البلاغية وتصنيفها تصنيفاً واضحاً وجلياً، جسدته إشارات عديدة مبثوثة في تضاعيف كتبه المختلفة[2]. وهي إشارات تكشف، عن وعيٍ دقيقٍ تحصّل لهذا الناقد الأدبي بضرورة الترتيب والتصنيف والتنظيم، فقد عُدّ ذلك شرطًا للبلاغة الواضحة، ومطلبًا أساسًا لتحفظ الحكمة والعلم.

إنَّ لكُلِّ شيءٍ من العلمِ ونوعٍ من الحكمةِ وصنفٍ من الأدبِ حسب رؤية الجاحظ ((سببًا يدعو إلى تأليفِ ما كان فيه مُشتتًا، ومعنىً يحدو على جمعِ ما كان منه مُتفرِقًا، ومتى أغفل حملة الأدبِ وأهلُ المعرفةِ تمييز الأخبار، واستنباط الآثار، وضمّ كُلّ جوهرٍ نفيس إلى شكله، أُميت الأدب ودُرِسَ مَستورُ كل نادر))[3].

ويزخر تأريخ شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت٧٤١هـ) بالايجازِ والافصاحِ الدقيق للمراتب البلاغية ، وأوسعها شرحًا وتفصيلًا في (دلائل الإعجاز)؛ لأنها السبيل إلى فهم بلاغة القرآن الكريم، والوقوف على أسرار إعجازه، وخروجه عن طوق البشر. بالكلام البليغِ و تربية الملكة على التكلُّمِ .

ولو أخذنا في الاعتبار مراتب البلاغة في الكلام لوجدنا أن درجات الكلام البليغ تتفاوت في الحسن، ويعلو بعضه على بعض تبعًا لاستيفاء مقومات البلاغة من مراعاةِ الأحوالِ والمقتضيات التي بها يرتقي الكلام ويزداد حسنًا وجمالا، ويعلو قدره في ميزان البلاغة؛ ولذلك قسم البلاغيون البلاغة إلى ثلاث

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحى (١٣٩ . ٢٣٨ هـ) ،شرحه : محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر.

(٢) رصد مصطفى الغرافي أطرافًا من هذا الوعي عند الجاحظ في مقالة موسومة بـ: ((في مسألة النوع الأدبي، دراسة في إجراءات المفهوم وتطبيقاته في الغرب وعند العرب الجاحظ))، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، العدد الأول، المجلد ٤٢ يوليو – سبتمبر، ٢٠١٣م، ص ١٥٢، وينظر: يوسف الصديق في بحث له موسوم بـ«مدى وعي الجاحظ بأجناس المنثور من خلال رسائله»، حوليات الجامعة التونسية، ع٤٣، ١٩٩٩م، ص ١٥٧. وينظر : حمادي صمود :«الوعي بالأجناس الأدبية في كتاب الحيوان للجاحظ»، حوليات الجامعة التونسية، ع٤٥، ٢٠٠١م، ص ١٩٩.

(٣) رسالة الحنين إلى الأوطان ضمن رسائل الجاحظ، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٢، ص ٢٣٢.

طبقات[1]:

الطبقة الأولى العُليا؛ هي بلاغة القرآن الكريم.

الطبقة الثانية الوسطى :

تتفاوت فيها بلاغة البلغاء من البشر، ودون ذلك مراتب كثيرة تتفاوت فيها أقدار البلغاء؛ من الكتاب والشعراء ورجال الأدب والنقد والفصاحة ، وكما يفضل النسج النسج والصياغة الصياغة ، ويعظم الفضل في ذلك ، وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وتتفاوت القيم تفاوتا شديدا؛ كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ويترقى منزلة فوق منزلة لخصائص نصادفها في سياق لفظه، ودقة معانيه، ونعرف كل هذه الصفات بالنظر في كلام العرب وتتبع أشعارهم ودراسة مزايا القول ويعينك على ذلك الذوق وتنمية مهارته بكثرة الاطلاع وتذوق فنون الأدب ودراسة علوم البلاغة الثلاثة : (المعاني، والبيان، والبديع)؛ لتتعرف فيها تلك الخصوصيات التي تكسب الكلام فخامة وفصاحة وجمالا

فعلى الكاتب أن يجعل لكل مقام مقالا، فيوجز حيث يحسن الإيجاز، ويطنب حيث يحسن الإطناب والإطالة ويؤكد في مواضع التوكيد ويقدم أو يؤخر بما يناسب موضوع القول وأهميته ليوفي بغرضه، فيخاطب الذكي بغير ما يخاطب به الغبي، ويجعل لكل حال ما يناسبها من العبرات الفصيحة والأساليب المختارة والمعنى المقصود، وهذا ما يسمى في علم البلاغة تصوير المعنى ومطابقة مقتضى الحال.

الطبقة الثالثة الدُّنيا :

يقول الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) : ((وللبلاغة طرفان، أعلى إليه تنتهي، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، ويتمثل في القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه ونظمه ومطابقته لمقتضيات الأحوال المختلفة مع دقة التعبير وقوة التأثير))[2] متبعًا قولهُ ب ((وأسفل منه تبتدئ، وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وإن كان الإعراب، وبين هذين الطرفين صحيح مراتب كثيرة متفاوتة في درجاتها، يعلو بعضها على بعض بحسب اختلاف المقامات ومراعاة الخصائص والاعتبارات المناسبة، والبعد عن أسباب الإخلال بالفصاحة))[3].

(١) ينظر : دلائل الإعجاز في علم المعاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠٣ م– ١٤٢٤هـ، ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه .

ومن هنا يتأكد للباحثِ إنّ للبلاغة مراتبُ ومقامات تورث الكلام حسنًا وقبولا، وتكسوه بهاء ونضارة، وهي المحسنات اللفظية والمعنوية، والتي أطلقوا عليها اسم البديع .

المطلب الثاني : أنواع المراتب البلاغية ومسارات تشكُّلها

أولاً : التداخل القيّمي وتشبّع دائرة البلاغة :

لقد عالج الفكر البلاغي والنقدي العربي منذ سنين عديدة مضت قضية (المرتبة) في إطار مفهوميّ (البلاغة والفصاحة)، وكان الأساس النظري لهذه المعالجة قائمًا على ثنائية (الأصل والفرع)، وهي الثنائية التي تفرعت منها مقولات الأقدمين؛ فالفصاحة شرط أولي للبلاغة ،فلا يكون الكلام بليغًا إلاّ بعد توافر ذلك الشرط ، أما إذا انتفى فإن الكلام لا يدخل في دائرة البلاغة ، ولا تتناوله علومها ، وهذا الشرط ليس من مهمة البلاغي تحقيقه ، وإنما مهمته الوقوف أمام نص قد استوفى جميع شروط الصواب اللغوي والنحوي، وإلاّ فقد تدخل فيما ليس له، واختفت الحدود التي تميز علما عن آخر؛ وهنا تعني الفصاحة بالنسبة للمتكلم في ظل التصورات السابقة ، الإبانة عما في النفس بلفظ فصيح، ومدلول الإبانة يقتضي أن يكون المتكلم ذا قدرة متميزة على التصرف في الكلام، واختيار أفضل السبل ، ليحقق وظيفة التواصل اللغوي ؛ وهي الفهم والإفهام، لذا كان أحد العناصر التي يتناولها البحث في الفصاحة ، فكان له نصيب من مقاييسها. ومقياس فصاحته الملكة التي ((يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح))[1].

فمقومات فصاحة المتكلم تعزى إلى القدرة على تمييز الجيد من الرديء ، وانتقاء عناصر التعبير الذي يفضي إلى الإبانة عن أفكاره وأغراضه ومشاعره . وإذا ما ضُمَّ هذا إلى ما قيل عن بلاغة المتكلم من أنها ((ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ))[2]، ظهر أنه ليس غير ما تحدث عنه البلاغيون الأدباء تحت مقياس الطبع، أو الموهبة الغريزية، بل إنه تلخيص لما جاء هناك؛ إلاَّ أن ثمة ما يمكن أن يكون تعارضًا أو تناقضًا في الوقوف عند فصاحة المتكلم بعد الوقوف عند فصاحة الكلمة والكلام، مما يجعل الشك واردًا في قيمة مقياس فصاحة المتكلم، والكلام البليغ هو الملائم لأحوال المخاطبين مع فصاحة نظمه ومفرداته استنادًا إلى معيار البلاغة المرتكز على مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ولا مشاحةَ في أنّ مراتبُ المخاطبين متعددة تُصنّف وفقًا لمراتبِ الوصل، والفصل، ومقام الإيجاز أو الإطناب أو المساواة أو غير ذلك، والواقع

(١) التلخيص، ٣٢ .

(٢) الإيضاح، ٤٠/ ١.

أن مفهوم مراتب البلاغة يدور حول المطابقة والفصاحة ، أعني : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ،وحسن سبكه وجودة رصفه . وهذان العنصران – أعنى المطابقة والفصاحة – هما جناحا البلاغة، وقد ارتباطاً وثيقاً بهذا المعنى في إعطاء كل مقام حقه ، ووضع الكلام موضعه ، ومراعاة الأحوال والمناسبات وهو أمرٌ مهم تقوم عليه البلاغة، ولاتتحقق بدونه، ومعلوم أن الكلام لايتسابق لفظه ومعناه إلى القلب حتى يقع موقعه ، ويصادفُ الحال التي تُناسبهُ[١].

ولا شكّ في أنّ البلاغة هي أن تجعل لكل مقام مقال، ((فتوجز حيث يحسن الايجاز، وتطلب حيث يجمل الاطناب، وتوكد في موضع التوكيد ، وتقدم أو تؤخر اذا رأيت ذلك أنسب لقولك، وأوفى بغرضك ، وتخاطب الذكي بغير ما تخاطب به الغبي، وتجعل لكل حال ما يناسبها من القول، في عبـارة فصيحة ومعنى مُختار))[٢]، وهنا يتحقق شرط تشبُّع دائرة التداخل القيمي في علوم البلاغة بما يكسبها نظريًا تقيدًا بحدودِ النصِّ ذاته؛ وعلى هذا الصعيد بالذات تتشكل الأسلوبية على المعطى الألسني المحض؛ لأن اللسانيات قـد حددت اللغة بكونها ((ظاهرة اجتماعية، وكائناً حياً مـع اعتبار أنها تركيبة قائمة في ذاتها أي أنها كُلٌّ يقوم على ظواهر مرتبطة العناصر، وماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر، بحيث لا يتحدد أحدها إلا بعلاقته بالأخرى))[٣]، فتكون اللغة جهاز تنظيم في صلبه عناصر مترابطة عضويا بحيث إذا تغير عنصر ينجر عنه تغير وضع بقية العناصر.

وترتيبًا على كُلّ ما تقدَّم فإن ثمة أسـئلة ثلاثة نودُّ – في هذا البحث – طرحها، ومحاولة الإجابة عنها ؛ وهي: ما الأبعاد الدلالية والقصدية الكامنة في الرتبة البلاغية؛ أي في تنظيم المستعمل للعناصر اللغوية في التراكيب النحوية؟ ومـا مدى حضور هذه الأبعاد في تراثنا النقدي والبلاغي العربي ؟ وكيف قاربت الاتجاهات الأسلوبية الحديثة هذه الأبعاد ؟

وستأتي الإجابة متممّة لما أوردناه بالتحليل والإستقراء الوصفي .

ثانيًا : نسق التراتب الخطابي، ونسق الغايات :

إذا أسلمنا نظرنا في الموروث البلاغي العربي –في حدودِ طاقتنا البحثية– نخلصُ إلى تسجيل ملحظ لا يخلو من أهمية مؤداه هيمنة المقصدية الإيديولوجية على هذا الموروثِ، وهي هيمنة يمكن تلمس بعض

(١) يُنظر : البيان والتبيين : ١ / ١١٥.
(٢) منابت الدرس البلاغي العربي : د.خالد العنكري ، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص١٣.
(٣) ملامح تجديد البلاغة في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب : عثماني عمار، جامعة وهران –أحمد بن بلّة ، ٢٠١٥–٢٠١٦م، ص٢٤.

مظاهرها في مستويين :

الأول : يتصل بـ»بنية الخطاب» ويخص الطريقة المعتمدة عند علمائنا القدامى في بسط المشاغل البلاغية التي استأثرت باهتمامهم.

أما الثاني : فمتعلق بـ «فحوى الخطاب» ويهم القضايا التي استأثرت باهتمام علماء البلاغة العربية المعتبرين ؛وذلك لأن فحص «بنية» الخطاب البلاغي العربي باعتبار «نسق المفاهيم» و»نسق الغايات» يكشف عن خطاب إيديولوجي صريح من طوابعه توجه سجالي يحاور الخصوم متحديًا، ويقيم الحجة ويطلبها، بما يجعل الخطاب البلاغي في المحصلة- بنية حجاجية إيديولوجية عمادها الدفاع عن ملفوظ إزاء ملفوظات أخرى ؛لكن فصل البلاغة العربية عن أنظمة التفكير التي حاطت نشأتها أفضى إلى تغييب الملمح الإيديولوجي الذي وسم تشغيل المقولات البلاغية في السياق العربي، ونجد مصداق هذه الرؤية في توجّه محمد مفتاح قائلاً : ((بقيت البلاغة العربية في الدراسات القديمة والحديثة مفصولة عن النظام الفكري الذي نشأت فيه وترعرعت، فهي وثيقة الصلة بالمنطق والأصول والنحو وعلم الكلام. وعدم مراعاة التفاعل بين هذه الفروع المعرفية عاق المصلحين أن يكتشفوا الآليات العميقة التي تحكم النشاط الاستدلالي اللغوي القائمة عليها تلك الفروع))[1].

فمن المعروف لعموم الدارسين أن العلوم المختلفة المكونة لدوحة البلاغة العربية الشريفة، (والعلوم العربية عموما)، إنما نشأت وتخلقت استجابة لغاية سامية هي التدبر في هندسة العبارة القرآنية «البليغة»، لاستجلاء مظاهر «الإعجاز» فيها. ومن هذه القضية، الإيديولوجية في أصل منشأها، والمتخذة كساءً معرفيًا في العرض والمناولة، تناسلت معظم الإشكالات الثقافية والحضارية التي شغلت العقل العربي «البياني» طويلا، فالتركيز على قضية الشعر الجاهلي إثباتا ونفيا، إنما كان باعتباره شاهدا على «الإعجاز»في أوجّ صورهِ ومناحيهِ المتعددة[2].

يترتب عن ذلك التسليم بأن البلاغة العربية في أصلِ نشأتها كانت قائمة على نسقِ الغاية الجمالية الأدبية المرتبطة بأنساق معرفية يبعثها المتكلم عبر مجسّات العملية البيانية المستندة إلى مراعاةِ المقامات وتكاملِ وصولِ الهدفِ المرجو من لغة الخطاب البليغ وفق أساليب متنوعة، منها : مطابقة الأسلوب لعقلية القارئين والسامعين، فيجب الاّ يكون الأسلوب عاليًا جدًا يصعب فهمه ؛ بل يجب أن يكون في متناول عقولهم ،

(١) تحليل الخطاب الشعري واستراتجية التناص، محمد مفتاح، دار التنوير، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ص ٦٩.

(٢) بحوث المطابقة لمقتضى الحال: د.علي البدري، جامعة الأزهر – القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، ص١٤٧.

يستطيعون أن يدركوه في سهولة ويسر وخير وسيلة لمرعاة هذه المطابقة أن يكون الخطيب أو الكاتب على علم نامٍ بعقلية الناس وطباعهم .

لابد أن يستند إلى هذه النشأة، ولذلك فإن حاجة الفهم إلى تقييد تلك المراتب وفق أنساقها المعرفية قائم على الغاية المُتحققة، لذا يمكننا أن نستخلص أهم ثلاث مظاهر للمراتب البلاغية فيما يستند إلى الكلام والمتكلمين والمخاطبين بالآتي : وهي متدرجة من المركز إلى الأطراف ويناسب طردا هذا التدرج اتساع في الدائرة البلاغية :

١- مرتبة المركز : يتم الانتشار بتوسط العلاقات بين السمات المركزية المكونة للخطاب الأولي وبين سمات واحـد أو أكثر من المفاهيم المنتمية إلى حقل دلالي ما. والعلاقات هنا تقـوم أساسا على الشبه والتجاور، وهي في اتجاهها انتشارية .

٢- مرتبة الوسط : يتم فيها انتشار من درجة ثانية لاحقة على السابقة بتوسط علاقة الانتماء إلى حقل واحد. ولذلك يوجد من المفاهيم ما يلتحق بدلالة وحدة معجمية ما دون توسط علاقة من العلاقات الفاعلة في المرتبة المركز. فهذا الانتشار مجاله الحقل الدلالي الواحد.

٣- مرتبة الأطراف أو التخوم.

وسنأتي على تفصيلات تلك المراتب وفقاً لقاعدة ثلاثية البلاغة العربية (المعاني – البيان – البديع).

ثالثاً : ثلاثية المراتب البلاغية (المركزية العُليا، التدرجات الوسطى، الأطراف والتّخوم)

تُشكّل هذه المراتب ثلاثية مستخلصة من مضامين رؤىً نقدية تضافرت مجتمعة على ترسيخ قيم البلاغة العربية وهي لاتثبتُ أمام ماجاء في القرآن الكريم، وفي كلام البلغاء من تشبيهات، حيث لم يكن اقتصارها على صورة دون صورة، وإنما نجد المراوحة بين تلك الصور، ولو حكمنا هذه المراتب في الحكم على بعض التشبيهات البلاغية في علم البيان أو محسِّنات البديع؛ لأخرجنا شطرًا منها من دائرة البلاغة، وضعفنا شطراً، وهذا لايدعيه أحد، وبخاصة في جانب القرآن الكريم، الأنموذج الأعلى في البلاغة، كما أن هذه المراتب لاتنتمي ولا يمكن أن تنتمي إلى النظرية الأم التي هي الوضوح في تأدية المراد، إذ تقتضي هذه النظرية أن ينظر إلى ماسماه علماء البلاغة بمراتب التشبيه على أنه بدائل متساوية في القيمة من حيث هي طرق للتعبير، حتى يظهر في السياق أو المقام مايرجح أحدها ، فيكون أولى بالاختيار .

ولعله قد اتضح أن تلك المراتب التي وضعها السكاكي، وأقرها من تبعه من البلاغيين ليست ذات

جدوى في تناول التشبيه أو الحكم عليه باعتباره أسلوبا وطريقة من طرق التصوير البياني، وأقل مايمكن أن يقال في ذلك الترتيب أنه أثر من آثار المنطق الذي يقدم العقل على الذوق. وبالنظرة المتأنية في الأقسام والتفريعات والقواعد التي اصطنعها علماء البلاغة، بهدف ضبط مقاييس جودة التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وما بذلوه في سبيل ذلك من مجهود واضح، يتبين عدد من الحقائق التي تمس جوهر البحث البلاغي. فإنه على الرغم من أن القضايا التي يطرحها هذا المبحث ليست جديدة، بل قد سبق إلى طرحها عدد من القدماء من نقاد وبلاغيين، إلا أن العلماء قد أسرفوا في تطلب القواعد ، حتى باعدوا بين بحث التشبيه وبين التناول الأدبي الذي كان سائدا عند أسلافهم ، حين كانت النظرة إلى التشبيهات نظرة فنية تقوم على التحليل، والبحث عن جماليات الصورة، وما تحدثه من تأثير في نفس السامع من خلال سياقها في النص الأدبي : دون تعمق في انتماء تلك الصورة إلى هذا القسم أو ذاك، أو الاستعانة بالقواعد القبلية . لقد ترك حرص علماء البلاغة على إثبات القواعد واستقصاء الأقسام بصماته على هذا البحث جملة وتفصيلاً ، فلقد دعا ذلك إلى أن جعلوا لكل شاهد وجدوه قسماً خاصا، حتى وإن لم يكن لذلك الشاهد ثان ، فإن استنبطوا قسما ولم يجدوا شاهدا لجأوا إلى المثال، بل أحيانا يختفي الشاهد والمثال ويظهر مكانهما الكلام عن صور معزولة عن سياقاتها الفنية، كالذي مر من قول السكاكي عن طرفي التشبيه : ((إما أن يكونا مستندين إلى الحس، كالخد عند التشبيه بالورد في المبصرات، وكالأطيط عند التشبيه بصوت الفراريج في المسموعات، وكالنكهة عند التشبيه بالعنبر في المشمومات، وكالريق عند التشبيه بالخمر في المذوقات، وكالجلد الناعم عند التشبيه بالحرير في الملموسات))[1].

وهنا يتأكد للبحث أن التغييرات التي تطرأ على المعنى أوجدت نوعًا من العلاقة بين علم الدلالة والبلاغة، وبذا صار تبدل المعنى وانزلاقه عاملاً مشتركا بين البلاغة والدلالة خاصة في علمي البيان والبديع . وهو شكل من أشكال تبدل المعنى، فتكون في نقل العلاقة الفعلية أو الاسمية أو نقل العلاقة المرجعية، أو نقل العلاقة الذاتية بين الكلمة والمتكلمين وذلك لأسباب تاريخية أو دلالية أو اجتماعية أو نفسية أو للتأثير والتأثُّرِ هذا من الناحية الدلالية[2]، أما من حيث البلاغة فإن تبدل المعنى يتم بطرق كثيرة منها المقام، والمقال، المجاز، التشبيه، الاستعارة، الكتابة، التورية.

(١) مفتاح العلوم : السكاكي : ص ٣٣٢.

(٢) ينظر : العلاقات الدلالية في التراث البلاغي العربي : د.عبد الواحد حسن الشيخ ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، ص٦٢.

المطلب الثالث : قصدية المراتب البلاغية، الأصول والمراجعات

المراجعة الأولى : تأصيل المراتب البيانية :

لم تغفل علوم البلاغة العربية جانب التفسيرِ الموضوعي للمفاهيم المطروحة في متونها؛ بوصفها ركائز تستند إليها هذهِ العلوم والمساهمة الفاعلة في بلورة وجهات النظر بين البلاغيين قديمًا وحديثًا، مع ضرورة الإشارة إلى الإختلاف الواضح في منهجية القصد والدلالة والمضامين الجوهرية ، ويبدو أن مفهوم المرتبة البلاغية أخذ حيزاً واسعاً في الدراسات النقدية والبلاغية العربية قديماً ؛ الاّ أنها لم تنل حظًا من الدراسات الحديثة على الرغم من أصالة مفهوم المرتبة في متون الأقدمين إلاّ إننا نجد إشارات متفرقة هنا وهناك استدعنا في هذا البحث الوقوف عنها بتجميعِ شتاتها وتحديد معايير واضحة معتمدة للمراتب البلاغية مع مراعاةِ مقامات المتكلمين والمخاطبين .

ومع انشغال أهل الفصاحة والبلاغة بالكشفِ عن صفاتِ النظم وهندسةِ التراكيب في علم المعاني، والبحث في مجازات الكلام وتشبيهاته في علم البيان، وطرائق تحسين اللفظ والمعنى ووجوه تزينهما في علم البديع ، إلاّ إن نقطة الالتقاء المشتركة في هذه العلوم الثلاثة تشكّل محوراً مهماً من محاور النظرية الأسلوبية الحديثة والقائمة على الحجاج حتى أنها اصبحت من المسلّمات التي يركن إليها المبدعون شعرًا ونثرًا، مع التفائهم لجانب الفنية والجمالية وكُل علمٍ من هذه العلوم له دوره الرئيس في ترسيخ الصيغة المقامية وتحديد درجات البلاغة في الكلام والمتكلم .

ومما تحفل به كُتب البيان العربي يمثل نقطة انطلاق حقيقية لتحديد مفهوم المرتبة البلاغية وتأصيل جذورها المرجعية التي تبدأ بتلخيص البيان في مجازات القرآن، والمجازات النبوية، والنكتِ في إعجاز القرآن[1].

وتقسّم المراتب البلاغية فيها إلى :

١ – المراتب العُليا (المحفوظة) : ويراد بها أن الكلام في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا، دقيق، ومن ثم كثرت فيه الأقاويل فاضطربت فيه المذاهب، وتفرقوا على أنحاء كثيرة، الوجه في إعجازه هو اختصاصه بالأسلوب المفارق لسائر الأساليب الشعرية والخطابية وغيرهما، فإنه مختص بالفواصل والأسجاع فمن أجل هذا جعلنا هذا الوجه مختصاً بتأليف الكلمات.

(١) ينظر : مجازات القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ط١، مطبعة الخانجي – مصر، ١٩٥٤م، ص١١٣، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، مطبعة المقتطف – مصر، ١٣٣٢هـ–١٩١٤م.

٢- المراتب الوسطى (المتدرِّجة) : المعاني من جهة بلاغتها، وتأدية المعنى المقصود منها على ما يكون وأعلاه. وهذا هو المراد من البلاغة.

٣- المراتب الدُّنيا التي يعرفها العربي والأعجمي : ولا يكون مشترطاً فيها اجتماع الكلمات وتأليفها، وهذا هو قول من قال : الوجه في ترتيبِهِ هو اختصاصه بالأسلوب المفارق لسائر الأساليب الشعرية والخطابية وغيرهما.

المراجعة الثانية : تأصيل مراتب المعاني :

قال أبو البقاء الحنفي أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، (ت١٤٠٩هـ)[1] :

ومراتب تأليف الكلام خمس :

المرتبة الأولى : ضم الحُروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصيل الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.

المرتبة الثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصيل الجمل المفيدة، ويقال له: المنثور من الكلام.

المرتبة الثالثة : ضم بعض ذلك إلى بعض ضمًا له مبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم.

المرتبة الرابعة : أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له : المسجع.

المرتبة الخامسة : أن يجعل له مع ذلك وزن، ويقال له : الشعر.

والمنظوم : إما محاورةً ويقال له الخطابةُ وإما مكاتبة ويقال له : الرسالة.

فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسامِ : فمنها : البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل؛ ومنها الجائز الطلق الرسل، والأول : أعلاها، والثاني : أوسطهاُ والثالث : أدناها وأقربها .

وقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شُعبة وقد توجد الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام.

فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم.

المراجعة الثالثة : تأصيلُ المراتب البديعية :

بدأ التأليف في البديع بكتاب المعتز المتوفى آخر القرن الثالث الهجرى وقد سمّى في كتابه ثمانية عشر لوناً بديعياً، ثم سار التأليف في هذا العصر إلى أن وصل به المصرى (ابن أبي الإصبع) إلى مائة وعشرين نوعاً .

(١) الكلياتُ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص: ٢٨٨.

ونود أن نذكر أن درس البديع قد اختلط في مباحث البلاغيين المتقدمين بألوان من علمي المعاني والبيان وأن، تحديد مباحثه على وجه الدقة لم يتم إلا في القرن السابع على يد السكاكي ومن سار على نهجهِ من المشارقة ولم يلتزموا في تواليفهم بمنهج السكاكي لي وأبرزهم ابن أبي الإصبع .

ويبدو أن دائرة البحث قد اتسعت منذ ابن أبي الإصبع ،وربما قبله حين أضافَ البديعيون إلى صوره وفنونه المعلومة فنونًا كثيرة من البيان والمعاني.

لقد حرص علماء البلاغة على إثبات القواعد واستقصاء الأقسام بصماته على هذا البحث جملة وتفصيلاً ، فلقد دعا ذلك إلى أن جعلوا لكل شاهد وجدوه قسما خاصا، حتى وإن لم يكن لذلك الشاهد ثان، فإن استنبطوا قسما ولم يجدوا شاهدا لجأوا إلى المثال، بل أحيانًا يختفي الشاهد والمثال ويظهر مكانهما الكلام عن صور معزولة عن سياقاتها الفنية، كالذي مرَّ من قول العالم البلاغي بهاء الدين السبكي حين انتقد أهل المشرق وطريقتهم : ((أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة، وأشار إليهم بأصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلاً عن الأغمار – الأعمار، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار))[1].

فمقومات فصاحة المتكلم تعزى إلى القدرة على تمييز الجيد من الرديء، وانتقاء عناصر التعبير الذي يفضي إلى الإبانة عن أفكاره وأغراضه ومشاعره . وإذا ما ضم هذا إلى ما قيل عن بلاغة المتكلم من أنها ((ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ))، ظهر أنه ليس غير ما تحدث عنه البلاغيون الأدباء تحت مقياس الطبع، أو الموهبة الغريزية، بل إنه تلخيص لما جاء هناك.

الخاتمة والنتائج

الحمدُّ لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاةُ والسلام على الشفيعِ الحبيب وبليغ البلغاء سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أما بعد ...

بعد رحلةٍ علمية ممنهجة في رحابِ أفانين البلاغة بعلومها الثلاثة، تزودنا بشواهد القولِ ، ووقفنا على غاياتِ البحث في أصول المراتب البلاغية في التراث العربي وتأصيل مقاصدهِ الضمنية، وتوصلنا إلى جملةٍ

(١) عروس الأفراح، ج١، ص٥.

من النتائج التي يرتكز عليها الباحث في استكمال عدّته للغوصِ في مكنوناتِ علم البلاغة العربية، ومن أهم تلك النتائج :

أولاً: للكلام البليغ مراتب ومنازل في الارتقاء والرفعة والفصاحة : أعلاها ما يصل إلى حد الإعجاز، أو ما يقرب منه، مما يتبينه الأدباء في كلام الله تعالى (بلسان عربي مبين)، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم (الكلم النبوي الشريف).

ثانيًا: ودون ذلك مراتب كثيرة تتفاوت فيها أقدار البلغاء ؛ من الكتاب والشعراء ورجال الأدب والنقد والفصاحة، يفضل النسج النسج والصياغة الصياغة، ويعظم الفضل في ذلك، وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة .

ثالثًا: تتفاوت القيم البلاغية تفاوتا شديدا ،كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ويترقى منزلة فوق منزلة لخصائص نصادفها في سياق لفظه، ودقة معانيه، وروعة تصويراته وتعبيراته ونعرف كل هذه الصفات بالنظر في كلام العرب وتتبع أشعارهم ودراسة مزايا القول ويعينك على ذلك الذوق وتنمية مهارته بكثرة الاطلاع وتذوق فنونِ الأدبِ.

رابعًا: دراسة علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) للتعرف على الخصوصيات التي تكسب الكلام فخامة وفصاحة وجمالا، فعلى الكاتب أن يجعل أسلوبه قائماً على مرتكز (لكل مقام مقال) فيوجز حيث يحسن الإيجاز، ويطنب حيث يحسن الإطناب والإطالة، ويؤكد في مواضع التوكيد، ويقدم أو يؤخر بما يناسب موضوع القول وأهميته ليوفي بغرضه فيخاطب الذكي بغير ما يخاطب به الغبي، ويجعل لكل حال ما يناسبها من العبارات الفصيحة والأساليب المختارة والمعنى المقصود.

خامساً: مراتب البلاغة العربية مُتدرجة من العلو إلى الدنو بحسب مضامين البلاغة وأساليب صياغة الكلام وتوجيهه للمتكلمين.

سادسًا: تأسست البلاغة العربية على أربعة مراتب، وهي :

١- الممارسة النقدية التي شاعت في البيئة العربية قبل مجيء الإسلام.

٢- الإعجاز القرآني الذي خصه البلاغيون العرب القدماء بالعناية والاهتمام، بحثا عن مواطن الإعجاز.

٣- التقعيد اللغوي الذي كان يهدف من خلاله علماء اللغة إلى الحفاظ على خصوصية العربية.

٤- التفاعل الثقافي الذي كان موضع شد وجذب ومد وجزر بين الدارسين المعاصرين للبلاغة العربية.

سابعًا: أسهمت المراتب البلاغية في إنبثاق علومها الثلاثة وتحديد مقصدية دلالة الخطاب وبيان غاياته الأدبية والجمالية والأسلوبية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. أساس البلاغة : أبو القاسم محمد بن جار الله الزمخشري ، ط: دار ومطابع الشعب، القاهرة، ط: الأولى،١٩٦٠ م.

٢. أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقي، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١ ، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م .

٣. أوساط البلاغة العربية : أ.د.مصطفى الجويني، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

٤. الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع : تأليف الخطيب القزويني، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ.

٥. بحوث المطابقة لمقتضى الحال، زاد النقد الأدبي السليم، القسم الأول : د.علي البدري، جامعة الأزهر، ط٢ ، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٦. البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط١ ،١٤٢٣ هـ.

٧. تاج العروس من جواهر القاموس :محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ،تح: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية.

٨. التلخيص في علوم البلاغة : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى الخطيب، ضبطه : عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط٢، ١٣٥٠هـ-١٩٣٣م.

٩. دور الرتبة في الظاهرة النحوية : عزام محمد ذيب أشريدة، رسالة ماجستير، إشراف : أ.د. حسن موسى الشاعر، الجامعة الهاشمية ،٢٠٠٣م.

١٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية :لإسماعيل بن حمّاد الجوهرى، تح: أحمد عبدالغفور عطّار ، مطبعة بولاق -مصر ، ط١ ، ١٩٤٤م.

١١. الضرورة الشعرية في النحو العربي : د.عبد الجبار بلال منير، دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٦م.

١٢. الضرورة الشعرية في النحو العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

١٣. طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلّام الجُمحي، تح : محمود محمد شاكر، دار المدني، المكتبة الوقفية.

١٤. الطراز المتضمن أسرار البلاغة : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللهَّ، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٥. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدين السّبكي ، تح : عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

١٦. العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي، دراسة تطبيقية، د.عبد الواحد حسن الشيخ ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية ، ط١ ، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٧. كتابُ العين مرتبًا على حروف المعجم : للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: الدكتور عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية -بيروت ،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٨. الكلِّيات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تح: عدنان درويش – محمد المصري الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان، ط١.

١٩. لسان العرب : لابن منظور، بتصرف، (رتب)، ط: الثالثة، دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٠. مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري، تح: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ .

٢١. مسألة النَّوع الأدبي دراسة في إجراءات المفهوم وتطبيقاته في الغرب وعند العرب، د.مصطفى الغرافي، مقالات الحوار اليوم، إشراف الدكتور خالد هنداوي، ٢٠١٦م.

٢٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل : تح: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١ م.

٢٣. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة .

٢٤. مفتاح العلوم : يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٢٥. منابت الدرس البلاغي : خالد العِنكري، بحث منشور في مجلة أوراق نماء، العدد ٢٣، لسنة ٢٠١٦م.